إيران تخطّت الفلسطينيين والعرب وإسرائيل تتوسّع في الاحتلال

عبدالوهاب بدرخان

لحظة «طوفان الأقصى»، صباح السابع من أكتوبر ٢٠٢٣، كانت لحظة للمقاومة الفلسطينية، لا شك في ذلك، لكنها خصوصاً شرارة حدث تطلعت إليه إيران وساهمت على مدى أعوام في كل تحضيراته وتفاصيله. فالصراع مع إسرائيل والتبشير بإزالتها والحثّ على محاربتها كانت ولا تزال في صلب الخطاب الايديولوجيا الإيراني منذ انتصار الثورة قبل خمسة وأربعين عاماً الى الآن.

«طهران مكنت تل أبيب عملياً من الحفاظ على مخططاتها.. ولا تهتم بالخسائر البشرية والعمرانية التي يتكبّدها الفلسطينيون واللبنانيون»

وهذا ما مدّ جسور التواصل بين طهران وأطياف كثيرة في تيارات «الإسلام السياسي» الطامحة الى السلطة في أي مكان، متخذة من المسألة الفلسطينية منصة استقطاب شعبي، تماماً كما كانت أنظمة كثيرة استخدمت هذه المنصة في عقود سابقة وخاضت منها حروباً خاسرة ضد إسرائيل وحروباً مظفّرة ضد الداخل، قبل أن يبدأ موسم الهجرة الى التطبيع.

لا يجادل أحد في أن حركة «حماس» فصيل فلسطيني له جذور في المجتمع، ولا يتجاهل أحد أنها دعت دائماً الى استئناف المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الإسرائيلي، وجرى التعامل عموماً مع عمليتها «طوفان الأقصى» بما تستحقه من اعجاب وتقدير لكفاءة القدرة والتنظيم اللذين ضمنا نجاحاً كاملاً للجانب العسكري البحت فيها، بمعزل عما عقبها من إفلات أو انفلات لفصائل ثانوية وجماعات أهلية على مُستوطنات «غلاف غزّة» ما لبث أن قدّم لإسرائيل مسوغات بروباغندية، ليس فقط لتشويه العملية نفسها ووصمها بالإرهاب والتنكيل بالمدنيين، وإنما بالأخص للتضليل وحرف الأنظار عن الإخفاق الإسرائيلي، الأمني والاستخباري، وما تبعه مباشرةً من قتل عشوائي نال من إسرائيليين وفلسطينيين وفقاً لبروتوكول «هانيبال». وعلى رغم أن إيران نالت مكاسب فعلية من عملية «الطوفان»، إلا أنها نأت بنفسها عنها وأوحت بأنها لم تكن موافقة عليها، ومما تردّد أنها فوجئت بالتوقيت، وهذا ما أثار تكهّنات بأنها كانت تفضّل خطة أخرى تقحم كل «ساحات المقاومة» في المعركة وفي وقت واحد.

سيبقى ذلك من أسرار إيران مع محورها، لكنها أعطت الضوء الأخضر لـ «حزب الله» كي يشعل جبهة جنوب لبنان غداة يوم «الطوفان» في الثامن من أكتوبر لـ «مساندة غزّة»،كما أوعزت لفصائلها وميليشياتها في العراق واليمن كي تساهم أيضاً في هذه «المساندة».وفي الأثناءقبلت على مضض استثناء سوريا لأن روسيا ألزمت النظام بعدم التدخل، وتلقّى هذا النظام نصائح في الاتجاه نفسه من عواصم خليجية، وكانت أُبلغت إليه تحذيرات إسرائيلية مباشرة بأن الضربات الجوية والصاروخية التي تستهدف مواقع إيرانية من وقت الى آخر ستشمل أيضاً قوات النظام ومنشآته إذا انخرط في الحرب. وبذلك تعذّر على الإيرانيين تشغيل قوس المواجهة الذي يصل جنوب لبنان بالجولان كما خططوا له وباشروا بإعداده غداة حرب ٢٠٠٦، وعندما قصف «حزب الله» مراراً قوات العدو في الجولان كان يطلق صواريخه من منصات في البقاع اللبناني.

وهكذا حصل خلل في «وحدة الساحات» كما جرى تصوّرهافي طهران منذ مطلع ٢٠٢٣، فتركّز الثقل بمعظمه على «حزب الله» الذي كان يعمل- خلافاً لميليشيات العراق واليمن التي طوّعت بيئاتها- في بيئة مذهبية حاضنة لكن في بيئة لبنانية منهكة عموماً بأزمات اقتصادية ومالية ومعيشية وسياسية، ورافضة أو غير مهيّأة لإقحام لبنان في حرب لا يخفى فيها التفاوت في ميزان القوى، بل لم يخفَ أنها تلبي «المشروع الإيراني» أكثر مما يمكن أن تفيد غزّة. غير أن «الحزب» وبالأخص أمينه العام حسن نصرالله اجتهدا في إظهار الالتزام بـ «قواعد الاشتباك» والإشارة الى أن العدو نفسه يلتزمها أيضاً، واعتبرا ذلك «معادلة ردع» لا يمكن أي طرف أن يتجاوزها. وبمرور الوقت تبيّن جلياً لإيران ووكلائها أن «المساندة» لم تمنع إسرائيل من ارتكاب منهجي لكل أنواع جرائم «الإبادة الجماعية» في غزّة، من تقتيل وتجويع وحرمان من الخدمات الصحيّة وتدمير عمراني شامل، إلا أن السطوة الأمنية لـ «الحزب» منعت أي مساءلة لبنانية لجدوى هذه «المساندة» تحت طائلة التخوين والتأثيم.

باكر جداً في «عام الطوفان» هذا فُتحت خطوط تفاوض بين الولايات المتحدة وإيران سواء لـ «منع توسيع نطاق الحرب» أو لـ «تجنّب حرب كبرى إقليمية». وقد اتضح الآن أن هاذين العنوانين كانا أداتين لتغطية الخداع الديبلوماسي، وكذلك لتمويه البحث في المصالح. فالدولتان طرفان في الحرب وتلعبان دور الوسيط الزائف: أحدهما الأميركي المتورّط علناً ورسمياً بالسلاح والمال والسياسة الى جانب إسرائيل ولا يريد أن يزعجها أحد في حربها على غزّة واندفاعها الى الانتقام من «حماس» والقضاء عليها. والآخر الإيراني المتورّط بإشعال الحرائق حول إسرائيل وهو يعلم مسبقاً أنه مهما قدّم من أسلحة الى المقاومة المسلحة،لن يتمكّن من اسداء أي خدمة للشعب الفلسطيني في سعيه الى التخلص من الاحتلال الإسرائيلي، لكن الحرب والتهديد بتوسيعها مفيدان لاستدراج الأميركي الى التفاوض ومحاولة انقاذ «حماس»، والأهم لانتزاع مكاسب لإيران.

في نهاية المطاف كانت نتائج هذه الجولات التفاوضية واضحة: فالولايات المتحدة استطاعت أن تحصر الحرب في قطاع غزة ووابكت إسرائيل في قتل أهله وتدميره وفي اضعافها لـ «حماس»، ولم تستطع منعها من التنكيل الدموي بالضفة الغربية، ثم أنها تدعمها الآن في الأهداف الرئيسية لحربها على «حزب الله» في لبنان. في المقابل لم تستطع إيران انتزاع وقف اطلاق النار لإنقاذ «حماس»، ولا الحصول على ضمان أميركي بعدم التعرّض لأهمّ أذرعها الإقليمية- «حزب الله" - بل على العكس لم تخف واشنطن «مباركتها» اغتيال معظم أعضاء رأسَ هرمه القيادي، واعتبرته ثأراً «عادلاً» لقتلاها من «المارينز» في بيروت قبل واحد وأربعين عاماً.

اتضح، استطراداً، أن «عدم توسيع الحرب» و"منع الحرب الإقليمية» كانا وهمَين مكشوفين، فالحرب توسّعت مع انضمام فصائل المقاومة اليها، بالمشاغلة اليوميةعبر جنوب لبنان وبالتعرّض للملاحة الدولية من اليمن، ومع الحملة الشرسة ضد لبنان ظهرت محدودية هاتين الجبهتين ليس فقط في إيذاء إسرائيل أو ردعها، بل تحديداً في دعم الشعب الفلسطيني وقضيته. أما «إقليمية» الحرب فعَنت دائماً أن تشارك إيران بقوّتها مباشرةً في خوضها، لكن هذا الاحتمال لم يكن وارداً في أي يوم، فإيران كانت ولا تزال جاهزة لتمويل وكلائها وتسليحهم وتدريبهم كي يحاربوا دفاعاً عنها في فلسطين ولبنان والعراق واليمن وسوريا لئلا تضطر للدفاع عن نفسها في طهران.

في الذكرى السنوية الأولى لـ «طوفان الأقصى» باتت الحرب فعلياً بين إيران وإسرائيل. هذا ما حاولت إسرائيل ابرازه وترويجه حتى قبل وقت طويل من٠٧ أكتوبر، وما تتصرّف اليوم على أنه واقع، ليس فقط لتصوير نفسها «ضحية في مأزق وجودي» محاطة بـ «سبع جبهات» بل أيضاً لتذكيرالغرب بأنها أداته المدافعة عن مصالحه وسياساته في المنطقة العربية، غير أن الغرب الذي لم يتوقف عن دعمها بات بعض كثير منه يضيق بالأعباء القانونية والسياسية التي ترتّبها عليه وحشيّة اسرائيل وعنصريتها وتطرف حكومتها وميليشيات مستوطنيها.

أما إيران فلا تبدو محرجة أو منزعجة من اعتبارها طرفاً أساسياً في الصراع، فهذا ما بحثت عنه منذ راحت توسّع نفوذها في المحيط العربي، ولا شك أنها تعتبر هذه الحرب تتويجاً لفرض نفسها لاعباً اقليمياً- دولياً لا بدّ أن تكون له كلمة في أي ترتيبات تُعدّ للمنطقة. فبعد واحد وثلاثين عاماً على «اتفاق أوسلو» الذي فشل في تحقيق سلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وبعد مرور عقدين على قمّتين عربيتين-الأولى أقرّت «السلام خياراً استراتيجياً» والثانية تبنّت «مبادرة السلام العربية" - ومواصلة الاميركيين والإسرائيليين التواطؤ ضد أي «سلام حقيقي»، تستطيع إيران القول أنها تخطّت العرب والمنطقة والقوى الدولية وأعادت احياء المقاومة المسلحة ضد إسرائيل، وتريد في المقابل تثبيت نفوذها والاعتراف به في أربع دول عربية، لكنها لن تعترف بأنها مكّنت الإسرائيليين والأميركيين عملياً من الحفاظ على مخططاتهم... وكما إسرائيل، كذلك إيران، لا تهتم بالخسائر البشرية والعمرانية التي يتكبّدها الفلسطينيون واللبنانيون وغيرهم من العرب.